ووعى نصيحة الناصح، فهو لا يلتفت مخافة أن يدركه البوار إن حول وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه، والفتاة تسعى مسرعة تستقبل بوجهها المشرق الكئيب وجسمها الضئيل النشيط ضوء الشمس ونسيم الصبح واستيقاظ الحياة والأحياء، وما تزال كذلك حتى يغمرها الضحى وحتى تغمرها الحياة التي تشطت من حولها، وإنما هي مضطرة بحكم الغريزة وبحكم هذا الإعياء الذي أخذ يدرك جسمها الضعيف شيئًا فشيئًا إلى أن تمضي مبطئة وتسعى هونًا، ولا يكاد ينتصف النهار حتى تبلغ البحر وحتى تعبره، ولا يكاد يتقدم النهار نحو العصر حتى تكون قد بلغت مأمنها وأفلتت من طلب الطالبين وانتهت إلى قرية من القرى فمالت إليها تريد أن تبلغ عند أهلها حظًّا من راحة وشيئًا من طعام وأن تنفق عندهم الليل.

نعم إني لأراني في هذه الطريق وحيدة شريدة لا أملك إلا نفسي الضعيفة البائسة، وإلا جسمي النحيل الضئيل، وإلا ثيابًا بالية أو كالبالية، وأنا مع ذلك لا أحفل بما تركت ولا بمن تركت، ولا أسأل عما أنا مقدمة عليه من الأمر، ولا عمن أنا مقبلة عليهم من الناس، إنما هو الهيام في الأرض والسكر بهذا الشراب الخطر الذي نسميه حب الحرية والذي يكلفنا أحيانًا من أمرنا شططًا. أكنت خائفة …؟ أكنت آمنة …؟ لا أدري! وإنما كنت أشعر بالأمرين جميعًا يتعاقبان على قلبي كما يتعاقب الليل والنهار على الأرض وما عليها.

كنت أطمئن إلى أني لن أرى أمي ولن أسمع صوتها، ولن أرى أهل الدار وأشاركهم في شيء، ولن ألقى ذلك الرجل المجرم ذا النفس الفاجرة والقلب الغليظ، ولن أخضع لغلظته ولن أحتمل تقربه إلي وترضيه لي، فيمتلئ قلبي أمنًا وهدوءًا وتبسم لي الحياة عن أجمل الصور وأحفلها بالأماني والآمال، وأجد في ذلك قوة وشجاعة وصبرًا، فأمضي لا يدركني الإعياء ولا ينالني الكلال. ثم كنت أذكر أختي ولا سيما بعد أن عبرت البحر وأخذت الطريق تختلط علي، وأخذت أحاول أن أتعرف أين انحرف بنا خالنا المجرم عن الجادة إلى ذلك الفضاء العريض الذي اقترف إثمه فيه.

كنت أذكر أختي فما أكاد أثير ذكرها حتى يثور ظلها أمامي، وإذا أنا أراها ماثلة ذاهلة كما تعودت أن أراها منذ تركنا المدينة، وإذا أنا أهم أن أسعى إليها وأن أمسها بيدي وأن آخذ معها في الحديث، وإذا أنا أتنبه للخطب وأتبين الحقيقة الواقعة، وإذا ينابيع الحزن تنفجر في قلبي وإذا الحزن يجري مع دمي، وإذا جسمي كله نار مضطرمة ولوعة محرقة، وإذا دموعي تنهمر على خدي، وإذا أنا مضطرة إلى أن أنتبذ ناحية من الطريق لأبكي على مهل على غير مرأى من الناس.